(١)

أين كشك الموسيقى بل أين الموسيقى*؟

أين ذهبت حديقة الأزبكية؟ أين ذهبت حديقة النزهة أمام حديقة الأندلس؟ أين الميدان الجميل الذى كانت تزينه واحدة من أجمل وأعظم دور الأوبرا فى الدنيا؟ وكشك الموسيقى أين ذهب؟ لقد حرمنا أنفسنا متعة الخضرة والجمال لكى نفتح أبواب النهب لدخلاء على لمدينة والحضارة معًا..

مأساة أمثالى من حملة الأقلام أن من يقرأونهم هم دائمًا رفقاؤهم فى السلام وزملاؤهم فى معركة الحضارة ممن يعرفون ما يكتب دون أن يقرأوه..

أما الذين نكتب ليقرأوا فلا يقرأون أبدًا. فنحن وإياهم كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ سورة البقرة الآية ٦..

وحديثى اليوم موجه إلى كل محب لمصر وكل من ألقى السمع وهو شهيد، وهو موجه إلى من بأيديهم مصائر مدننا من محافظين وأعضاء ورؤساء مجالس المدن ومن تبعهم وعمل معهم بإحسان أو بغير إحسان فهل عساهم قارئين؟..

أم نتعزى عن إعراضهم عن كلامنا بقول الله سبحانه فى محكم التنزيل ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ سورة البقرة الآية ١٧..

كان أبى موظفًا فى الحكومة وكان موظف الحكومة فى تلك الأيام رجلاً محترمًا جدًا، فهو رجل ميرى، وكانت الدولة تمارس حيال موظفيها

---

* نشرت هذه المقالة فى ١ مارس ١٩٨١م .

حقوق الملكية فهو ملك للدولة تتصرف فيه كيف تشاء وكان هو يشعر بالاعتزاز بأنه ملك الدولة لأن معنى ذلك أنه من الحكام، وكان الناس يعاملونه على ذلك الأساس، فكانوا يتشرفون بسكناه فى بيوتهم وفى مدن الأرياف كان يهبون قيامًا إذا مر عليهم، وأذكر أننا كنا نقيم فى بيت واسع فى بنها فكان صاحب البيت يصعد إلينا بعد ظهر اليوم الأول من الشهر وينقر الباب فى حياء واحتشام وفى يده إيصال الإيجار، فإذا فتح أبى الباب حياه كما ينبغى أن يحيى الحكام. وقدم الإيصال معتذرًا (ولو فيها رزالة) ويدعوه أبى للدخول فيأبى احترامًا وتواضعًا ، ثم يدخل ويجلس على طرف الكنبة ويأخذ الإيجار شاكرًا ويحيى ثم ينصرف، وكان الإيجار جنيهين وكانت الشقة ست غرف وصالتين ودهليزًا طويلاً..

كانت الدولة تنقله بصفتها مالكته وقتما تشاء إلى حيث تشاء، وكان فى كل مرة يحزم عفشه - أى متاع بيته - ويرسله بالسكة الحديد، وقد تحطم المتاع من كثرة التنقل حتى صار فى النهاية حطامًا..

وكنا نحن - عائلته أقصد - جزءًا من ذلك العفش فكنا بعد إرسال العفش نحشر فى ديوان عربة سكة حديد (سكوندو) أى بالدرجة الثانية، ونرسل بالبريد العادى غير المسجل، ونلقى بعد رحلة طويلة أو قصيرة على أرصفة المحطات، وكانت كلها متشابهة فى كل شىء- حيث لا تجد فى العادة إلا مستقبلاً واحدًا هو فراش المكتب، ونركب عربة حنطور إلى بيت بارد موحش ليس فيه إلا الحيطان والبلاط، ويكون الفراش قد دبر لنا مرتبتين أو ثلاثا ولحافين أو ثلاثا، وبعد قليل يقبل باشكاتب المكتب ووالدى رئيسه لأنه وكيل مكتب البريد وخلفه خادم أو اثنان يحملان طعاما، وكانت الدنيا بخير، فكان أبى إذا أعلن رضاه السامى عن الشقة وإيجارها يستدعى مالك البيت ويدفع له الإيجار يوقع العقد، وبعد ذلك يرسل لنا مالك البيت طعامًا آخر وننطلق نحن نستكشف بيتنا الجديد ثم نهبط إلى الشارع لنتعرف على أولاد البيت والشارع ولا يهبط الليل

إلا ونكون قد درسنا الجغرافية البشرية للبيت والشارع وعقدنا صداقات اكتسبنا حق المواطنة، وفى الصباح يتشرف بقال الشارع بالمثول بين يدى وكيل البريد ويرسل لنا الإفطار من دكانه خبزًا وجبنًا وزيتونًا وفولاً وكانت الدنيا بخير..

ولم تكن هناك صعوبات فى الالتحاق بالمدارس بل كان أبى يتوجه إلى المكتب بينما يأخذنا الفراش إلى المدرسة ومعنا أوراق الالتحاق ويتم ذلك كله دون أية مشكلات..

ونظل فى هذا البلد ثلاث سنوات أو أقل حتى تنقلنا الحكومة إلى بلد آخر، فنعيد القصة كلها مرة أخرى وهكذا ينقل العفش ونحن فى إثره - بحسب ما أعى - من السويس إلى دمياط إلى بنها إلى دمياط مرة أخرى (لأن والدى قاد حركة إضراب عن العمل عندما نفى سعد زغلول إلى سيشل) ثم القاهرة ثم طنطا ثم القاهرة ثم إلى المنصورة مع ترقية لم يطرب لها والدى، فقد جاءت كما قال متأخرة عن أوانها تسع سنوات فأحال نفسه على المعاش قبل موعده بسنتين وأحال عفش بيتنا إلى الاستيداع كاملا، فباعه كله بما تيسر له، وعدنا إلى القاهرة دون قطعة عفش واحدة، واستأجرنا شقة فى بيت خيل إلينا أنه قصر عظيم، فقد كانت فيما كان يعرف إذ ذاك بالعمارات البلجيكية فى شارع حسن الأكبر، وكانت الشقة تطل على قصر عابدين أى أن جلالة الملك أصبح جارنا وفى يومين كان أبى قد أثث البيت كله بأثاث بسيط ولكنه جميل، وللمرة الأولى فى حياتى جلست إلى مكتب فى غرفة تنار بالكهرباء وتطل على حدائق عابدين..

وأصبح هذا المكتب متعتى الأولى فى الحياة، أما المتعة الثانية فكانت دار الكتب - على خطوات من البيت - ثم حديقة الأزبكية وكنت أحب الحدائق بلا حدود لأننى تعودت أن أجد فى كل بلد ذهبنا إليه متنزها جميلاً تعزف فيه فرقة موسيقى البوليس يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع فى كشك الموسيقى، وكانت هذه المتنزهات فى العادة فسيحة جميلة

مشرفة عامرة بالأشجار والورود والأزهار والخضرة. فكنت أقضى فى المنتزه – كما كنا نقول – يوم الجمعة كله. ففى الصباح أقضى الوقت على مقعد فى المنتزه الجميل النظيف وبعد ذلك كنت آخذ مكانى حول كشك الموسيقى وأستمع إلى عزف الفرقة من أوله إلى آخره وأعود إلى بيتى وفى عينى ألوان الورود وخضرة الزهر، وفى أذنى أنغام جميلة وكنت إذا عدت عملت واجباتى المدرسية كلها فى أقل من ساعتين، وكان أبى يتعجب من أمرى عندما يراجع على وكان يسأل وأجيب ثم يراجع ما كتبت من إنشاء وما حللت من حساب ثم يبتسم ويقول تعشيت؟. وأجيب بالإيجاب فلا يزيد على أن يقول قم فنم فتح الله عليك وآوى إلى فراشى والموسيقى كلها فى رأسى وكل ألوان الزهور والخضرة وأصوات العصافير فى خاطرى ويظل هذا كله يتردد فى خلدى حتى يوم الجمعة التالى..

وفى القاهرة سعدت بحديقة الأزبكية وكانت إذ ذاك حديقة حقًا، كانت جوهرة فى قلب القاهرة كنت أقضى فيها كل يوم الجمعة. كانت كلها زهورًا وورودًا وأشجار، وكان يقوم بالعمل فيها بستانيون هم فى الحقيقة أساتذة جمال، كانوا يعرفون كل زهرة واسمها ونوعها وكان هناك مهندس إيطالى يشرف على أحواض الورد والداليا والجلاد يولا والكريزانتيم، كان يسعده أن يتكلم معي عن كل زهرة، ومنه علمت أن فى الدنيا أكثر من خمسمائة نوع من الورد، ولكن هوايته الكبرى كانت الياسمين فكان يقول: إن الياسمين أصله من الهند ولكن موطنه الحقيقى هو مصر. ومصر كانت عنده ياسمينة. كان يرحل فى إجازته إلى إيطاليا ومعه بدل الحقائب أصص من ياسمين مصر ليزرعه فى بلده كابوا. كان يقول: إن كابوا أصبحت ياسمينة مصرية فى تلك الحديقة. ومع هذا الرجل تعلمت أكثر مما تعلمت فى المدرسة، وبعد الظهر يوم الجمعة كنت أجلس إلى كشك الموسيقى وأسمع أحلى أنغام الموسيقى العربية، وبعد ظهر الأحد كنت أخرج من المدرسة إلى حديقة الأزبكية. هنا كانت تعزف يوم الأحد

فرقة انجليزية فيها إيطاليون. هنا سمعت وأحببت للمرة الأولى فى حياتى أسماء فيردى وبوتشينى وليو كافالو ويوهان شتراوس وفرانز ليهار، فى السنة الأولى فى الجامعة كنت أعرف هؤلاء جميعا وأذكر أننى فى ذات أسبوع طلب إلينا مدرس اللغة الإنجليزية أن نكتب موضوعًا إنشائيًا عن وقت الربيع (سبيرينج تايم) وعندما أعاد إلينا الكراسات قال لى: أنت تدخل قسم اللغة الإنجليزية من أين تعلمت هذا فحكيت له فقال لى: أتدرى ماذا قال كيتس ثم قال لنا شعرًا معناه أن أعظم كتاب فى الدنيا حوض زهر..

أين ذهب ذلك كله؟..

أين ذهبت حديقة الأزبكية؟ بل أين حديقة النزهة أمام حديقة الأندلس التى كانت متعتنا فى الحياة؟.. أما الأزبكية فقد قتلت ودفنت خلف سور كان فى الماضى سوقًا للكتب وأصبحت اليوم أبشع سوق فى الدنيا: أجهزة راديو ومجلات تصم الأذان، يبيعها ناس حصلوا على هذه الدكاكين الحقيرة بوضع اليد ويطلبون فيها اليوم عشرات الألوف من الجنيهات شىء لا يصدق. أجمل شىء فى قاهرتنا أحلناه إلى أبشع شىء حرمنا أنفسنا متعة الخضرة والجمال لكى نفتح أبواب النهب لدخلاء على المدينة والحضارة معا. استأصلنا رئة القاهرة ووضعنا مكانها شيئًا مخيفًا أشبه بالسرطان فى نفس المكان الذى كان الإيطالى لنتينى يكلمنى عن أصناف الورد والياسمين، وضعوا لنا كتلة من الصخر والسلالم والناس هى إدارة المرور. ألم يكن من الممكن أن توضع هذه الإدارة فى مكان آخر؟..

والميدان الجميل الذى كانت تزينه واحدة من أجمل وأعظم دور الأوبرا فى الدنيا تطل عليها حديقة غناء كانت تملأ قلب القاهرة بشرًا، هذا الميدان أصبح اليوم كومًا هائلاً من البشاعة، استأصلنا الحديقة وحرقنا دار الأوبرا ولم تبق هناك إلا جماعات من باعة الفاكهة والأقلام والصور المرذولة ومئات من السيارات ليس بينها سيارة واحدة نظيفة، وكشك الموسيقى أين

ذهب؟ كشك الموسيقى فى الأزبكية وبنها والسويس ودمياط أين ذهب؟ لماذا يتلاشى شيئًا فشيئًا من بلادنا كل شىء جميل ليحل محله كل شىء كريه؟ لماذا تعلن الحرب على الخضرة والزهر والشجر ونفتح الأبواب أمام حفارى القبور؟..

كان فى بنها بعد الكوبرى القديم شارع بديع تظلله أشجار الجازورينا ذات الزهر الأحمر وابنة عمها ذات الزهر الوردى الذى يسمونه بينك آند ميلك أى ورد ولبن، مررت ببنها فى العام الماضى فلم أجده بدلاً من ذلك وجدت كتلاً من الأسمنت المسلح، والناس يقولون إنها مساكن شعبية، قلت وهل لابد من قطع الشجر لكى تبنى المساكن الشعبية؟.. ولم يجبنى أحد ولكنى أعرف الجواب أن السادة المشرفين على المدن عندنا يظنون أن الأشجار ارستقراطية!. وأن الديمقراطية الحقيقية لا تعرف الخضرة أو الشجر، ولهذا فهم أعداء كل شجرة وأول ما يفعلونه فى تنظيماتهم هو قطع الشجر، ولا أدرى كم مرة كتب الناس عن مذبحة الشجر فى بلادنا. ولكن الذى أعرفه أننا شيئًا فشيئًا سنحول كل مدننا إلى كتل من الأسمنت المسلح بينها أزقة وحوار غارقة فى ماء البلاليع..

لماذا لا يحدث هذا فى لندن أو باريس أو روما أو فيينا؟ لماذا تجد السادة كبار الموظفين يزورون بلاد الغرب ويعودون إلينا ستحدثون عن جمال ما رأوا ثم لا يكون لهم هم بعد ذلك إلا قطع الشجر وإعدام الخضرة وإعلان الحرب على كل ما هو جميل..

صدقونى إننى أذهب إلى لندن لأرى الخضرة! بلدنا، بلد الخضرة والبساتين، لم يعد يعرف الخضرة، وأولادنا الصغار يمر عليهم العام لا يرون فيه حديقة ولا خضرة.. لأن الذين يشرفون على تربيتهم لا يعرفون أن حديقة جميلة خير للتلميذ الصغير من مائة فصل يكدسون فيها الصغار ليملأوا رؤوسهم بما لا ينفع.. إننا بعيدون جدًا عن أبسط معانى التربية، نحن نحسب أن التربية تصدر عن رجال ذوى وجوه لا تسر، يؤلفون كتبًا

فيما يسمونه فلسفة التربية، ونظريات التربية، وأنا أقول لهم: مزقوا هذه الكتب أيها السادة واعطوا الأولاد فدانًا واحدًا من خضرة وزهر وورد ياسمين.. اطلقوهم فى الخضرة يحصلوا على ما هو أثمن من أية ثانوية عامة. يحصلوا على الإنسانية والجمال والفن وكل الحضارة ويصبحوا مواطنين جديرين بمصر. أما فلسفتكم فلا تخرج إلا شبابًا جافًا ميت القلب مثل الكتب التى تؤلفونها.. لهذا تجد الأجيال التى تربت فى مدننا أيام كانت عامرة بالشجر والخضرة أطلعت عباقرة، أما مساكين اليوم فمن أين تجيئهم العبقرية؟.. من المساكن الشعبية التى تتحول فى شهور إلى مقابر شعبية. أو من شوارع المدن أصبحت حفرًا ونقرًا ومستنقعات؟..

هل رأيت ما يفعله عمال المرافق؟ إنهم يفتحون الأرض ليعملوا لا أدرى ماذا ثم لا يسوونها أبدًا. كل شارع يزورونه يتركونه وراءهم أسوأ من تلال زينهم القديمة.. ولكنهم ليسوا مسئولين هؤلاء عمال، وهم يعملون بتوجيه رؤسائهم والمفروض أنهم مهندسون، ولو وضع المهندسون فى برامجهم تسوية الشوارع بعد حفرها لما وقعت هذه المآسى..

فى الصيف قبل الماضى جلست يومًا كاملاً فى «كافتت جاردنر» فى لندن، وانا أتأمل الخضرة بلا نهاية وجدت الدمع فى عينى. لأننى من أولئك الناس الذين يحملون وطنهم مصر فى قلوبهم أينما ذهبوا. ما رأيت فى الدنيا شيئًا جميلاً إلا تمنيت أن أراه فى بلدى. وما رأيت منظرًا لمجتمع مهذب هادئ سعيد إلا تمنيت لو كان هؤلاء أهلى وبنى وطنى، ولا يسوؤنى شىء فى الدنيا قدر ما يسوؤنى أولئك الذين يقولون: هذا لا يصلح لبلادنا.. ينبغى أن تراعى ظروفنا وبيئتنا قبل أن نقتبس شيئًا، وهؤلاء يريدون أن يقولوا: إن بلادنا لا يصح لها الجمال ولا النظام ولا إبداع الفن، لو تركتهم لأحالوا مصر كلها إلى قرية واحدة، كل منازلها من الطين. فى مناقشة دارت فى اجتماع عقدناه فى سرس الليان منذ ثلاثين سنة قال واحد من هؤلاء يعلق على كلامى: يا فلان، نحن لا نريد

كاليفورنيا فى كفر معيط! يحسبها هذا الثقيل نكتة قلت له طبعًا يا سيدى نحن علمناك من مالنا فى كاليفورنيا لكى تعود إلى بلادنا وتجعل منها كفر معيط.. يا خسارة كاليفورنيا فى مثلك! ولماذا والله لا تكون بلادنا كاليفورنيا وأجمل منها، ومن الذى صنع كاليفورنيا؟ ومن الذى صنع كفر معيط؟ أليسوا أهل كفر معيط؟ وما واجبنا نحن الذين نتحدث عن مصر أم الحضارة؟ واجبنا أن تجعل كفر معيط أجمل من كاليفورنيا، وعيب علينا أن يكون فينا آلاف الدكاترة وهذه حال مدننا. إن شجرة ياسمين واحدة أبرك على مصر من لقب دكتور، على الأقل شجرة الياسمين نعمة وزينة وعنصر محبة وسلام. أما لقب دكتور فماذا يعنى اليوم؟ يعنى مواطنًا يريد أن يصل إلى المال والوظائف بأى طريق، وفى طريقه يحول كل حديقة فى بلادنا إلى قطعة من الصحراء، ولو قام المتعلمون فى بلادنا بواجبهم نحو إخوانهم غير المتعلمين لكنا اليوم فى موضع آخر من ركب الحضارة، ولكن المتعلمين مع الأسف مقصرون أشد التقصير فى حق وطنهم، إنهم يرون الخراب ولا يبالون. يرسلون أولادهم المحروسين إلى مدارس أجنبية ويحشرون أولاد الآخرين فى جحور تسمى فصولاً، والواحد منهم يريد أن يجعل بيته أجمل من بيوت كاليفورنيا، اما الآخرون فليس لهم فى حسابه إلا كفر معيط.. ويا حسرة على كفر معيط! إنه يتيم تبرأ منه أعمامه وأخواله..

أين كشك الموسيقى؟..

بل أين الموسيقى؟..

ماتت، أو هى تحتضر!..

ولماذا تحتضر؟..

لأن سامع الموسيقى نفسه يتلاشى..

ولماذا يتلاشى سامع الموسيقى؟..

لأن الجو من حوله قاحل لا ينبت موسيقى أو شعرًا أو أى شىء جميل، وأنت لا تسكن الناس فى سجون من الأسمنت المسلح بينها شوارع هى ممرات ودهاليز كلها مطبات ووهدات، وتنتظر منهم بعد ذلك موسيقى أو شعرًا جميلاً أو نثرًا بديعًا..

والحضارة شجرة واحدة أو بستان واحد، فإما أن يوجد البستان كله بأشجاره وخضرته وزهوه وورود، وإما لا يوجد أبدًا..

وفى باريس نجد واحدة من أكبر دور الأوبرا فى الدنيا لأن فيها متحف اللوفر وحدائق التويلرى وغابة بولونيا وحدائق اللوكسمبورج وبارك مونسو والسوربون والأكاديمى فرانسيز وقاعة بلديل للموسيقى..

هذه كلها حزمة واحدة..

ولا يمكن أن يوجد متحف اللوفر فى كفر معيط..

هذا هو الذى يغيب عن بال الذين يخططون لحاضر مدننا ومستقبلها، إنهم يظنون أنهم يحسنون إلينا عندما يصدرون تشريعات تقول: إن ثمن طبق الفول بالزيت الحار زنة ١٦٠ جراما كذا، وإن وزن قرص الطعمية ينبغى أن يكون كذا، مع أنهم يعرفون أن بائع الفول سيبيع الفول بالسعر الذى يريد سواء أكان بالزيت الحار أم زيت البترول، وهو قبل كل شىء لا يعرف ما هو الجرام، أما الشىء الذى ينبغى أن يشغل بالهم فهو ضياع حديقة الأزبكية وحديقة النزهة وحدائق شبرا التى أصبحت مدافن شبرا..

ومادامت مدافن يعيش فيها الأحياء كأنهم أموات فما معنى تحديد وزن الفول بالزيت الحار أو بزيت الزيتون؟..

أيام كانت شبرا بساتين وحدائق تخرج فيها إبراهيم ناجى وصلاح ذهنى ورشاد رشدى وفتوح نشاطى وغيرهم كثيرون..

وأيام كان هناك شىء يسمى جنينة ناميش تخرج فيها يوسف السباعى ومصطفى المنفلوطى وعبد الحميد يونس وإبراهيم زكى خورشيد وغيرهم

أكثر، واذهب اليوم إلى جنينة ناميش وخذ معك زهورًا وشيخًا يقرأ آيات الرحمة لأنها أصبحت مقابر ناميش..

سألت نفسى ألف مرة: لماذا تموت فى بلادنا البلابل والحمائم واليمام وأشجار الجازورينا والبوتسيانا ريجيا ويبقى دائمًا الغربان ؟..

كنت جالسًا مرة فى حدائق اللوكسبورج وإلى جانبى علبة بسكويت وأتى طفل صغير جميل ووقف أمامى، فتناولت العلبة وقدمتها إليه فأخذ واحدة وعاد إلى أمه غير بعيد..

وقالت له أمه وأنا أسمع، أذهب إليه وقل له: شكرًا يا سيدى، وأتى الطفل وقال: مرسيه مسييه..

وقلت له: لا شيء يا صغيرى..

وعاد إلى أمه فرحًا..

وبعد قليل عاد ومد لى يده بشيء..

وأخذته منه، كانت قطعة كاراميل..

وأخذتها منه وقبلته وقلت له: شكرى يا صغيرى..

وعدت إلى الفندق، وقد انفعلت نفسى بما حدث وكالعادة معى ومع كل عشاق مصر مثلى شعرت بالدموع ملأ نفسى، لأننى فكرت فى أعز ما فى الوجود: مصر..

وأخرجت ورقة وكتبت: رسالة إلى مصر..

ووضعت القلم وأغلقت عينى وكتبت المقال، كتبته بالدموع داخل صدرى، ونحن عشاق مصر نبكى كثيرًا ونضحك قليلاً، والضحكات القليلة الباقية تموت شيئًا فشيئًا.. لأن دوافع المسرة تموت شيئًا فشيئًا تحت ضجيج أطباق الفول التى وزنها ١٦٠ جراما بالزيت الحار..

وتموت تحت معاول الذين يقتلون الأشجار..

وتموت تحت سنابك الذين حولوا روض الأزبكية إلى سوق للخطافين الذين يبيعون نسخ القرآن الكريم بنفس الأيدى غير الطاهرة التى يبيعون بها كاسيت (أنت فين يا حبيبى وأنا وحدى سهرانة (مستنياك)..

تموت فى بطه منذ اختفى الإيطالى لنتينى مع موسيقى فيردى وبونشينى ومحمد عثمان وكامل الخلعى ومحمد عبد الوهاب وسيد درويش.

وعلى أنغام: زرونى كل سنة مرة... عملت إيه فيكم تنسونى بالمرة

أضع نقطة الختام لهذه السطور التى هى فيض دموع..

(٢)
العـــك والإدارة*

كيف تطبق قواعد الإدارة السليمة فى قوم يعتقـدون أن تفضيـل الأقـارب والبلديـات مـروءة، ويـرون أن احـترام القـانون إهانـة وتطبيـق النظـام ذل، والمرتب حق لا علاقة له بالعمل، والعـلاوة ضريبـة تؤديـها الدولـة للأفـراد دون مناقشة، والاستمارات والأختام مقدسات، والإنتاج شىء لا علاقـة لـه بالإدارة أو بمجلس الإدارة..؟..

لفظ عك يعك، بمعناه الحديث، غير موجود فى القواميس القديمة، فـلا وجود له فى تاج العروس للمرتضى الزبيـدى، ولا فـى لسان العـرب لابـن منظور، ولا فى القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادى، ولكنـه سيوجد قطعًا فـى القـاموس الـذى سيصدرونه بـإذن الله، بمناسـبة مـرور ١٥ قرنـا هجريًا، وكلها مائة سـنة تفـوت، كمـا فـاتت القـرون التـى قبلـها، وربنـا يعطيك الصحة والعافية، وكل قرن وأنت بخير..

وعك يعك معناها أدار يدير، والعكيـك هـو المديـر، والعكيـك العـام هـو المدير العام، وعندما تتجلى مواهبه فى العك يرقونه إلى درجة عكيك مساعد والمراد وكيل مساعد، وبعد قليل، ونظرًا لمواهبـه النـادرة يرقونـه إلى درجـة عكيك وزارة..

والعكنة هى اللجنة، وهى التشـكيلة التـى تؤلـف لتخديـر أى مشـروع، وعكنة التعكين هى لجنة التحقيق التى يؤلفونها للتحقيق فـى أى مشـكلة، وهى تتكون عادة من عكنـاء أى خـبراء يجتمعـون وينفضـون ثـم يجتمعـون وينفضـون خمـس عشـرة مـرة، ثـم يكتبـون تقريـرًا خلاصتـه كلـه تمـام يـا أفندم!..وعكت المرأة الطعام لزوجها جعلته لبخة تضعها أمامـه ليمـلأ بـها بطنه، وهو فى العادة يأكلها لأنه هو نفسه عكة بفتح العين أى لبخة..

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ مارس ١٩٨١م .

وعك الرجل امرأته عكا أنجب منها بعكوكًا، والبعكوك هو المولود، وصحته معكوك، قلبت الميم باء وهو جائز ومثاله قولهم منطلون فى بنطلون، وفى العادة تنجب المرأة ثلاثة بعكاكيك خلال السنوات الثلاث الأولى لزواجها، واحد على يديها، وواحد على كتفها، والثالث يمسك بطرف ثوبها، وقبل أن يرفع الرجل رأسه يكون البعكوك الرابع فى بطنها، وامرأة معها أربعة بعاكيك تصرف أى رجل عن التفكير فى الطلاق، لأن البعاكيك الأربعة مع البعكوكة أمهم أهون من الوقوف أمام القاضى وحكم النفقة والبهدلة وبعض أولاد البلد لا يقولون البعكوكة فى الحديث عن بعكاتهم أى زوجاتهم، إنما يقولون المدعوقة، والمراد زوجتهم المصونة وهم يفهمونها دون الرجوع إلى القواميس..

□□□

ونعود إلى العك بمعنى الإدارة فنقول: إن الأصح هنا العكاكة حتى يتطابق اللفظ والمعنى، وفى أيام زمان لم تكن هناك أى علاقة بين العك أو العكاكة والإدارة لأن الإدارة كانت إدارة والعكاكة كانت عكاكة، ولكن التطور أدى إلى تقارب الاثنتين، حتى أصبحنا اليوم شيئا واحدا، فكل إدارة عامة هى عكاكة عامة، وكل مدير عام هو عكيك عام، ومواهب أولئك العكيكين العامين لا توصف ولا تحصى، وتفضل هذه المواهب نجد أن الإدارة أصبحت فى الحقيقة عكاكة.. أو عكة محترمة، فالشىء الذى يقضى فى يوم لابد أن يقضى فى شهر، والمشكلة التى يكفى لشرحها عرضحال دمغة لابد أن تكتب على خمسين عرضحال، وهذه العرضحالات تحمل أرقام ١٦ أو ٤٠ أو ٢٥ ب.. إلى آخره. وأنت لا تجدها فى مكتب البريد، لأن قواعد العك أو العكاكة تقول إنها لابد أن تعطى لامرأة جالسة على الأرض، حولها أربعة أطفال يلعبون فى التراب خارج المكتب، والعرضحال الذى ثمنه ١٠٠ مليم يباع بمائة وخمسين، وهذه المرأة أصبحت مع الزمن موظفة، وربما بدرجة مدير عام بالأقدمية، وأنت تكتب

العرضحال وتدخل إلى مساعد العكيك العام، فيكتب لك تعكيكة، والمراد تأشيرة، تقول إنه يحيلك إلى العكاكة المركزية فى شارع رمسيس، وشارع رمسيس طوله ٥ كيلو مترات، وعليك أن تبحث، وبعد أن تهلك تصل إلى العكاكة العامة فتجد الناس إلى الشارع، وعندما تصل فى النهاية إلى مكتب سكرتير العكيك يقول لك إنه فى عكنة، وتعال بكرة، وتأتى بكرة وبعد بكرة وبعد بعده، وفى النهاية تحصل على التعكيكة وهى التأشيرة، وهى تقول إنك ينبغى أن تعود إلى العكاكة المحلية.. إلى الإدارة التى كنت بها، وشيئًا فشيئًا تجد نفسك قد تحولت إلى عكوك، والمراد مكوك، وإلى أن تقضى حاجتك تكون بإذن الله قد بلغت سن المكاك وهو المعاش..

□□□

والعكاكة بمعنى الإدارة فن ابتكرناه نحن، وطورناه على مزاجنا، وبما يناسب تقاليدنا وعاداتنا، كما يقول أصحابنا المتحمسون، ومن خصائصها أن العكيك العام غير مسئول أصلاً عن نجاح العمل أو عدم نجاحه حتى لو كان عكيكًا عامًا لشركة تجارية، فلا يسأل العكيك عما إذا كانت الإدارة تكسب أو تخسر، وكل العيكات أى الهيئات العامة تخسر ولكن مجلس العكاكة ورئيس مجلس العكاكة والعكيك المنتدب لا يسألون عن الخسارة قط، لأن العكاكة شيء والمكسب والخسارة شيء، بالضبط كما أنه لا علاقة بما يلعنونه عندما يوقعون عقد شركة وما تنجلى عنه الأمور بعد ذلك، فهم عندما يوقعون عقد الشركة يقولون لك إنها ستنتج عشرة آلاف طن من لا أدرى ماذا، وستوفر بذلك عشرة ملايين من العملة الصعبة، وتقوم الشركة أو العكة وعلى رأسها عكيك ومجلس إدارة وعكيك منتدب، وكل واحد من هؤلاء له مكتب أكبر من المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض، وله سكرتارية وسيارة مرسيدس بالتليفون، وكل عكيك من هؤلاء يملأ الإدارة بالبعاكيك، والنتيجة أن الشركة لا تحقق أى كسب بل تأتى بخسارة، وتظل تستورد المواد التى كان مفروضًا أن توفرها، وأعجب من ذلك كله أن

عضو مجلس العك أو العكاكة المنتدب بعد خيبة الأمل والخسارة ينقل عضوًا لمجلس عك أكبر، تقديرا لمواهبه، ونحن ناس نعرف أقدار الناس..

□□□

عندما تفتح الصحف تجد أمثلة لا تصدق من العك الأصلى أو العك على أصوله، ويراد به هنا الإدارة المحكمة الحازمة، ومثال ذلك مأساة بحيرة مريوط، فهذه البحيرة كان يعيش على الصيد فيها عشرة آلاف صياد، ولكنهم كانوا لا يدفعون ضرائب، أو هكذا قالت المجلة التى نشرت الخبر، ونتيجة لهذا فقد قرر عكيك عظيم أن تجفف البحيرة، ليستفاد من أرضها فى الزراعة..

والطريقة التى اهتدوا إليها للتجفيف تدل على عبقرية فى العك، وهى أن تلقى فيها القمامات من الإسكندرية ودمنهور، وكل يوم تقذف عربات الزبالة بكذا طنا فى البحيرة، وهذه القمامة لا تجفف البحيرة، إنما تتعفن وتتحول إلى مياه، وهذا هو الذى يحدث اليوم، فلا البحيرة ردمت وتحولت إلى أرض زراعية، ولا نحن تركناها للصيادين، إنما حولناها تطبيقًا لقواعد العك الأصلى إلى مباءة ومركز لنشر الأمراض، وفى نفس الوقت جاع الصيادون وأصبحنا ملزمين بالإنفاق على أسرهم..

فهل بحث أحد عن هذا العكيك المنتدب أو العكاك العبقرى لكى يحاسبه على هذه النتيجة؟ وإذا كان القرار صادرًا عن عكنة من العكناء، فهل فكر أحد فى مساءلة لجنة الخبراء هذه عما فعلت؟ لا واللّه ، ولا يجوز ان يهدر تعب الناس، فنحن نعرف أن تعينهم أنهم خبراء فى العك. وقد قاموا بالمطلوب منهم، وجعلوا البحيرة عكة ممتازة، فماذا تطلب من العكاك إلا أن يعك؟..

ومثل هذه المآسى تحدث فى كل بحيرات شمال الدلتا، كلها تتحول إلى مقلب قمامة أو مباءات، وعلى أحسن الفروض سنجففها والسؤال الآن: ولماذا نجففها؟..

والجواب هنا يأتى من عكيك آخر بتشديد الكاف الأولى وكسرها، فهذا العكيك العظيم يقول إنه فى رحلة قام بها من ثلاث سنوات إلى أندونيسيا اكتشف أن الناس هناك ينشئون مزارع سمكية، وعندما اكتشف ذلك صاح: يوريكا.. وجدت لكم حلاً لمشكلة اللحوم والبروتينات، ننشئ مزارع سمكية، وفجأة تصبح المزارع السمكية موضة العام، وكل محافظة تتباهى بأنها تنشئ مزرعة سمكية على كذا فدانا..

صح النوم!

من عشرين سنة قرأنا فى الناشيونال جيوجرافيك مقالاً مطولاً عن المزارع السمكية فى أندونيسيا، والمقال يقول إن المزارع السمكية تجربة لا لزوم لها فى أندونيسيا، لأن أندونيسيا بلد جزائر وبحار، ومن الممكن جدًا تطوير صناعة صيد السمك ونقله وتجفيفه أو تسويقه كما يفعلون فى أسبانيا واسكوتلاندا وايرلاندا وإيطاليا، ولكن الفلاح الأندونيسى كسول، وهو لا يريد أن يعمل، ولهذا فبدلاً من أن يتعب نفسه فى الزرع والحرث والحصاد ينشئ حفرة فى أرضه، ويلقى فيها سمكًا صغيرًا ، والسمك يتوالد ويتكاثر دون جهد من الزارع، وهذا هو سبب انتشار المزارع السمكية هناك. أما فى اليابان فالمزارع السمكية شىء آخر ولها أسباب وفلسفة أخرى..

وأعجب من ذلك أننا هنا لدينا بحران كبيران غنيان بالأسماك ولدينا بحيرة ناصر وهر عامرة بالأسماك، ثم لدينا البحيرات، وهى مجالات ممتازة لتربية الأسماك، ولكننا لم نعرف كيف ننظم صيد الأسماك، ولا نحن عرفنا كيف نستفيد من مياه البحيرات فى هذا المطلب، وبدلاً من ذلك كله قررنا تحويل البحيرات إلى مباءات، وبحيرة قارون وهى مزرعة سمكية ممتازة، لا توصف اليوم إلا بأنها مأساة..

فقبل أن تصل إلى البحيرة، وعلى مسافة مئات الأمتار حولها، تجد الأرض قد تعطنت وتملحت وأصبحت مستنقعا رهيبًا، ما عدا مدخلاً صغيرًا، فإنك لن تصل إلى البحيرة إلا إذا خضت فى الطين والبحيرة التى

كانت من سنوات متنزها جميلاً، فيه فندق بديع، لم تعد متنزها ولا جميلاً، والفندق لا يمكن أن يحمل نجمًا واحدًا. نجومه الأربعة الماضية أكلها البعوض والذباب وقذارة دورات المياه التى لا يجرؤ على دخولها إنسان إلا بقناع غازات، والصيادون القليلون الذين يعملون فى البحيرة يتضورون جوعًا..

والفيوم منطقة سياحية ولوزارة السياحة فيها مكتب يديره عكيك أى مدير، ولكن العلاقات بينه وبين أجمل شىء فى منطقته مقطوعة، وقد كان قبله مدير يقولون أنه زار سويسرا فى رحلة كبرى ليرى كيف يعنون بالبحيرات، وقد زار سويسرا فلم يعد منها بعلم أو تجربة، إنما عاد منها بثلاث ساعات سويسرية، واحدة له والثانية لحرمه والثالثة لحماته، وهو ابنه. وفى مطار جنيف اشترى كرفات لأخيه عادل وإيشارب لأخته ميرفت، وعاد بالسلامة، وفى أيامه وأيام سابقة ولاحقه تزايد تحول البحيرة إلى عكة، وذلك هو المنتظر فهو عكيك ووظيفة العكيك هى أن يعك: هنا - والشهادة لله - ينبغى أن نقرر أن سيادته قام بعمله على الوجه الأكمل من هذه الناحية. ولا أدرى ماذا صنع الله به، والأغلب أنه اليوم عكيك وزارة مساعد، ولو لم يكن ماهرا فى فن العك ما وصل إلى هذه الدرجة، لأن الإدارة عندنا هى والعك سواء، فإذا رأيت رجلاً تخرج فى الجامعة فى الأربعينات أو الخمسينات ولم يصل بعد إلى درجة العكيك المساعد أو العكيك، فاعلم أنه إنسان خيبان مثلى ومثل كل الذين لا يعرفون أصول العك، والعكاكون الأسطوات فى الفن كلهم الآن، والحمد لله، وراء الأبواب المزدوجة المبطنة بالجوخ الأخضر، وهم جالسون إلى مكاتب ضخمة وأنيقة، وإلى جانب كل منهم أربعة تليفونات، ثلاثة منها عطلانة، والرابع عرجان، ومع ذلك فهو سعيد بهذه التليفونات، لأنها جزء من ديكور العك والعكاكين..

□□□

ومن هنا فإن الإدارة على طريقة العك والعكاكة، أصبحت فنًا محليًا له تقاليده وأصوله، ومن هذه الأصول أن أى إدارة أو هيئة أو مؤسسة لابد أن تخسر، ولو كانت إيراداتها ملايين، ومن أمثلة ذلك أنهم يقولون لك مثلاً: إن مطار القاهرة يخسر، ولابد أن تغطى الدولة خسارته، وفى نفس الوقت يقولون: إن عدد الذين يسافرون من هذا المطار فى العام يبلغون أربعة ملايين، وهو تقدير معقول، لأنه لا يمكن أن يقلع من ذلك المطار فى اليوم أقل من عشر طائرات، وطائرات اليوم كلها ضخمة، لا تحمل الوحدة منها أقل من ٢٥٠ راكبا، وهم يأخذون من المسافر المغادر ثلاثة جنيهات رسم مغادرة، وإذا حسبتها بدون آلة حاسبة وجدت أن المتحصل من رسم المغادرة لا يمكن أن يقل عن ١٢ مليون جنيه فى السنة، ومع ذلك فإن نصف لمبات الفلوريسنت فى قاعة الوصول محروقة لا تستبدل، والأرض يبدو أنها لم تكنس منذ أسابيع، ولا يمكن أن تجد فى شبابيك الجوازات أكثر من ثلاثة ضباط هلكانين من العمل، بينما تجد فى مطار لندن ثمانية ضباط على مناضد بيضاء لامعة من البلاستيك الصلب، وهناك ضابط ينظم حركة الذهاب إلى مناضد الضباط، فلا يوجد أمام أى منهم إلا راكب واحد، وكلما إنتهى راكب وختم جواز سفره أرسل به الضابط المنظم مسافرًا آخر، والناس يقفون طابورًا واحدًا منتظمًا.

ويقولون لك: كله من الجمهور.. ماذا نعمل فى الجمهور؟ ونقول: لا ياسادة، الجمهور يتعلم النظام هنا، وهو يمتثل دائمًا إذا وجد من ينظمه، بدليل أن هؤلاء الناس أنفسهم عندما يصلون إلى مطار أورلى أو هيثرو فإنهم يقفون فى طوابير..

ولكنك لا تطلب من الناس أن ينتظموا وأنت نفسك غير منتظم وأنت عندما تصل إلى مطار القاهرة، وقبل أن تدخل القاعة تجد رجالاً ينادون: الست نفيسة حسن سيد.. الست نفيسة حسن سيد الأستاذ على عبد الرحمن كامل الأستاذ حسن عبد اللطيف البنهاوى.. إلى آخره، وهؤلاء

المنادون سيأخذون جوازات سفرهم، ويشهلون لهم أعمالهم، بينما نحن- الجمهور - نقف فى طوابير اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة بحسب قواعد الهرجلة والعك..

وبينما أنت واقف لا يكف الميكروفون عن المناداة بأسماء موظفين فى المطار، يطلبهم زملاؤهم، وكل مرة نسمع صوتًا جديدًا كأن هذا الميكروفون الذى هو شىء خطير جدًا قد تحول إلى لعبة فى أيدى موظفى المطار..

وأين الإدارة من هذا كله؟..

وأين الاثنا عشر مليونا كلها؟..

ولماذا لابد لك من أن تخوض معركة حقيقية لتصل إلى حقائبك؟ ولماذا لا تشهد هذه المعركة إلا فى مطارنا؟..

ويقولون فى النهاية: الجمهور.. الجمهور هو المتهم الكبير..

ونحن نقول: لا يا سادة.. الجمهور مستعد لأن يسير بحسب القواعد التى ترسمونها له. فإذا قلتم لنا قفوا صفًا واحترمتم أنتم الصف احترمناه..

أما أن نقف فى الصف، وكل خمس دقائق يأتى فراش إلى ضابط الجوازات وفى يده عشر جوازات لناس ممتازين لا يقفون فى الصف أبدًا- وهذه الجوازات لابد أن تنجز قبل جوازاتنا - فهذا هو العك بعينه، وإذا كان المعلم عكاكًا أو عكيكا فكيف تحرم العك على الجمهور؟..

□□□

تريد مثالاً تاريخيًا للعك على أصوله؟..

أذهب فتأمل حال أكاديمية الفنون..

فهذه عكة محترمة صنعها وأتقنها وسبكها بالبصل والثوم والخل وبهية وعيون بهية أخونا فى الدراسة ورفيقنا فى سلاح الرأى والقلم رشاد رشدى صبحه الله بالخير ومساه. والحكاية وما فيها أن هذا البلد كان فى حاجة إلى معهد صغير للمسرح والسينما والموسيقى والباليه والفنون

الشعبية.. وما إلى ذلك. أقول: معهد صغير تكون هذه كلها أقسامًا فيه، فإن حاجتنا من المتخصصين فى هذه الفنون كلها قليلة، وليس لدينا جمهور عريض للموسيقى الغربية أو الموسيقى الأوبرالية أو ممثلى السينما والمسرح ومخرجيهما، وما إلى ذلك..

ولكننا على العادة، وسيرًا على قواعد العك، افتتحنا لهذه كلها معاهد ضخمة كأنها كليات، وأعددنا لكل منها هيئة تدريس، وإذا كنا نحتاج مثلا إلى مدرس للسولفيج عملنا قسما به، وعينا هيئة تدريس طويلة وعريضة، وجعلنا نخرج الطلاب بالعشرات..

وجاء أخونا رشاد فرأى أن تتحول هذه العكعكات إلى عكة كبيرة محترمة على مستوى جامعى، وسمى ذلك كله أكاديمية الفنون.. ومن بين تحفها معهد يسمى التذوق الفنى، وفى بلد مازال شعبه قانعًا بأنغام مثل «يا عزيز عينى» و«العتبة جزاز» أنشأوا معهدًا ليعلمنا كيف نتذوق الحركة الثالثة من السيمفونية الرابعة لبرامز، وكيف نستسيغ الحقبة الزرقاء، من تطور فن بابلو بيكاسو!..

وتحول مديرو المعاهد إلى عمداء، وكان لابد من إنشاء هيئات تدريس جامعية لمعاهد هى فى الحقيقة كتاتيب فنية، وأخذنا فى إعداد دكاترة فى علوم وفنون لا يعرف عنها تسعة وتسعون فى المائة من أهل البلد شيئًا. باختصار أردنا أن ننقل مطعم مكسيم إلى قرية ميت شحاتة. والنتيجة أن المدرس الطيب الذى كان قانعًا بتدريس النوتة أصبح من حقه أن يكون دكتورا ليكون مدرسًا ثم يسير فى الطريق السلطانى إلى الأستاذية..

ولما كان هذا مستحيلاً فقد أخذت العكة تتضخم، حتى أصبحت الأكاديمية أو العكاديمية مجموعة هائلة من العقد أو العكات الصغيرة، دارت الحرب الأهلية بين جدران تلك العكة المحترمة، وتحول مدير العكاديمية الذى هو أخونا رشاد إلى شاويش نقطة، وأصبحت كتب الدراسة دفاتر أحوال..

وهكذا صنع أخونا «الشيف» الذى طالت طاقيته، حتى أصبحت فى طول الطاهى الأول فى مطعم بيير فى باريس، صنع أعجب وأطرف عكة فى بر مصر، ثم تركها ومضى ليحل محله «شيف» آخر، ومن المؤكد أن التحفة الفنية التى عكها أخونا ستصبح على مدى القرون غرة الغرر فى فن العك على أصوله..

والمأساة أننا ينبغى أن ندفع ثمن ذلك كله شهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، وليس فى الدنيا ناس يحاربون فى سبيل القرش ثم ينفقون الجنيهات فى عبط مثلنا..

والأمثلة التى ضربتها تعطيك فكرة عن العك الإدارى وأشكاله وأساليبه، وقد اخترتها من أشياء تفهمها مثل المطار وسكة الحديد الأكاديمية، وتأكد أنك لو دخلت فى إدارات مصانع وهيئات وشركات تنتج أشياء كالأسمنت وحديد السلح والألومنيوم والملابس وما إلى ذلك، فسترى العجائب من فن العك المحترم.

وأضرب لك مثالاً شهدته، فقد كانت هناك شركة لا أذكر ماذا كان اسمها، ولكنها كانت تعمل فى النقل النهرى، وكان عندها مراكب صارت فى ملكيتها عند التأميم، وأرادوا مرة إصلاح أرضية سفينة، وتقدم الفنيون بمشروعات، ولكن مدير الشركة بعبقريته قال: غطوا أرض المراكب بالأسمنت فلا ينفذ منها الماء! وكل سنة يضعون طبقة أسمنت، وأخذت المراكب تغرق بثقل الأسمنت، وتحولت كلها إلى كهنة، وغرقت معها الشركة، أما السيد المدير فقد أحيل إلى المعاش معززًا مكرمًا، وبعد شهرين صدر قرار بتعيينه عضو مجلس إدارة منتدب فى شركة أخرى.

هل رأيت أغرب من هذا العك؟..

إننى أذكر هنا بيت شعر، لشاعر أندلسى يقول:

ولو كان سهما واحدا لاتقيته

لكنه سهم وثان وثالث

وأترجم البيت إلى المصرية الفصحى وأقول:

ولـــــو كـــــان عكـــــا واحـــــدا لاتقيتـــــه
ولكنـــــــــه عـــك وثـــــان وثـــــالث

□□□

وليس أسهل فى الدنيا من الإدارة السليمة..

إنها تقوم على العلم والحزم ولا عدل والتجرد ووضوح الرؤية..

وكيف تطبق قواعد الإدارة السليمة فى قوم يعتقدون أن تفضيل الأبناء والأقارب والبلديات مروءة، ومن أمثالهم فى ذلك أن من لا خير فيه لأهله فلا خير فيه لأحد؟ وهم يعتقدون أن احترام القانون إهانة واتباع النظام مذلة..

إن عصرنا الحالى هو عصر الإدارة. واليوم هو يوم المدير المدبر المنظم الذى يعرف أن مصر لا تحتاج اليوم إلى مديرين على مكاتب ضخمة خلف أبواب مبطنة بالجوخ، بل تحتاج إلى مدير يصرف الأمور ويعرف كيف ينتج إنتاجًا يباع، ولكى يباع ينبغى أن يكون جيدًا، ولابد له من مهارة فى التسويق والتوزيع..

ومن العجيب مثلاً أننا نفكر فى المزارع السمكية لأننا فشلنا فى إدارة المصايد، والأسماك فوقنا وإلى يميننا وإلى جنوبنا فى بحيرة ناصر، ولكن استخراجها وتوصيلها إلى المستهلك فى القاهرة يحتاج إلى إدارة، والإدارة تحتاج إلى مديرين لا إلى عكاكين، والإدارة على طريقة العكاكة هى أسرع طريق إلى الخراب..

والإدارة ذمة وضمير وقلب وإشراف مباشر على خطوط العمل والإنتاج جميعا، أما الإدارة التى تقوم على أوراق دمغة، واستمارات ذات أرقام وحروف وإمضاء من ثلاثين مسئولاً، وألقاب كأنها الطبل، وترقيات بلا مقابل، وعمل بلا رقابة، وحسابات غير مضبوطة، وتخطيط على الورق، فإذا خرج من الورق مات، ونياشين على صدور هى فى الواقع جدران.. كل ذلك عك، والعك هو التلبيخ، والتلبيخ عندنا تخطيط، وأهى ماشية وربنا يستر..

(٣)
بلد.. شهادات* !

فى رواية فاوست للكاتب الألمانى جيته يقول فاوست لمفيستوفيلس: وماذا يضايقك فى هذه المصطلحات اللاتينية التى نستعملها؟ إنها يا سيدى الغطاء الذى نستر به عيوبنا.. كلما صادفنا شيئًا لا نفهمه وضعنا له مصطلحًا لاتينيا يبهر الناس ويجعلهم يشعرون أننا علماء..

وهذا ينطبق على الكثير جدا من ألقاب الماجستير والدكتوراه عندنا اليوم.. إنها أغطية وأقنعة نستر بها الجهل أحيانا ، ونكسب بها لقمة العيش فى أكثر الأحيان ، والطالب لا يدقق فيما يقول لأنه يعرف أن الكثيرين من الأساتذة لا يقرأون لا هذا البحث ولا غيره ، ولقب دكتور يعطى كأنه صدقة أو حسنة لوجه الله ، وقاعات الرسائل فى مكتباتنا الجامعية تضم الألوف من تلك المجلدات الثمينة المجلدة بالقماش الأسود، والله وحده يعلم ما فيها.. الجيل الذى تخرجنا عليه نحن وبقية العالم العربى لم يكن فى رجاله إلا القليل ممن حلت عليهم بركة الدكتوراه ، ربما لأنهم كانوا علماء حقًا ، ولأنهم كانوا كذلك فلم يكونوا بحاجة إلى طيلسان الدكتورية لكى يؤكد للناس مكانهم من العلم.

فحمد شفيق غربال وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين وأمين الخولى ومصطفى عامر وأحمد الشايب وعلى عبد الرازق وعبد الرحمن الرافعى ومعظم هذا الرعيل المبارك الذى ملأ طباق عالم العرب والإسلام علما ، لم يحمل واحد منهم لقب دكتور .

ولكنهم جميعا كانوا بحار علم ومعرفة ، واحد منهم وهو عباس محمود العقاد كان جامعة كاملة ، ولو شاء أى منهم أن يحمل عشرة طيالسة دكتوراه لحملها ، وواحد منهم فعل ذلك وهو زكى مبارك فلم يكن دكتورًا واحدًا بل كان دكاترة ، وكان يلقب نفسه فعلا بالدكاترة زكى مبارك.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ أبريل ١٩٨١م .

وأيام هذا الجيل الذى هو إلى أيامنا هذه عماد مجد مصر الفكرى ، كانت قاعة صغيرة فى شارع صغير متفرع من شارع عبد العزيز يسمى شارع الكرداسى أو حارة الهدارة تضم من العلم قدر ما تضمه جامعاتنا اليوم جميعا ، تلك هى قاعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ولقد رأيت فيها ذات خميس كل من ذكرت مضافًا إليهم محمد كرد على عالم الشام فى عصره وحسن حسنى عبد الوهاب عالم تونس وعبد العزيز الميمنى عالم الهند وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى وكامل كيلانى ومحمد لطفى جمعة ومحمود تيمور ومحمد فريد وجدى ومحمد فريد أبو حديد ومصطفى عبد الرازق ومحمد عوض محمد وأحمد زكى باشا شيخ العروبة ، وكان شباب العلماء فى ذلك الحين.. ومن بينهم زكى نجيب محمود وإبراهيم حلمى عبد الرحمن وعبد الرحمن بدوى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة ومحمد مندور وشوقى ضيف وإبراهيم بيومى مدكور وغيرهم كثيرون يجلسون فى نفس القاعة ويتلقون من الرعيل القائد راية العلم ليسيروا بها إلى الأمام ، وكان كل رجال هذا الجيل الثانى دكاترة بالفعل ، ولكن الدكتوراه كانت أقل أدواتهم وأيسر ما يذكرونه من عدة لحمل الأمانة لأنهم حتى بدون لقب دكتور كانوا سيصلون إلى ما وصلوا إليه ويزيدون ، ولم يكن حصولهم على ذلك اللقب إلا استكمالا لشكليات. كانت الجامعة تتطلبها منهم ، وكان العلم ينتقل إذا ذاك من قاعة شارع الكرداسى وبيت آل عبد الرازق فى الشارع الواقع خلف قصر عابدين - وكان يسمى باب باريز - إلى قاعات الجامعة القديمة فى سراى الزعفران ثم الجامعة الجديدة فى حدائق الأورمان.. وليته ما انتقل.

لأن الانتقال بدا لنا إذ ذاك أنه تطور حتمى تقتضيه طبيعة التقدم ، وقد فاتنا يومها أنه انتقل من عصور تقليد العلم العربى الخالد إلى عصور ضياع. كان ينتقل من عصور كان العالم فيها عالما بعلمه وحفظه وجلالة قدره واحترامه لنفسه لا بلقب يحمله لا ندرى كيف حمله ، أيام كان على العالم

أن يدافع عن مكانته كل يوم أى أيام كان على الشيخ أن يحصل على لقب الشيخ الحافظ كل يوم ، لأنه فى امتحان ومناقشة كل يوم ولابد أن يخرج منها بدرجة الشرف الأولى كل مرة؟ فإذا قصر يومًا واحدًا أو تلعثم فى الإجابة عن سؤال أو سها فى رواية سند واحد من إسناد الصحاح والمسانيد وكتب السنن.. انصرف الناس عنه وتحدثوا بالخطأ الذى لا يغتفر الذى وقع فيه ، وكانت عندهم عبارة قاسية يقولونها وهى: لقد وقع الشيخ فى حفرة.

ولقد وقع فى الحفرة شيخ أندلسى جليل بسبب نقطة واحدة وضعها خطأ فوق حرف! وهذا الشيخ هو أصبغ بن خليل من أعلام الأندلس فى القرن الثالث الهجرى وقد قرأ الصحابى المعروف أسيد بن الخضير (الاسمان بصورة التصغير) أسيد بن الخفير بالخاء فأكله الناس أكلاً.

وأمامى الآن كتابان من كتب تراجم العلماء عندنا هما الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر العسقلانى ، والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى ، وإن قلب الإنسان ليخشع وهو يقرأ سير أولئك الناس وما كانوا يدرسونه ويواظبون على درسه يوما بعد يوم حتى يحتفظوا بلقب الأستاذية لأن الواحد منهم كان يعرف أن خطأ واحدًا فى درس أو فى كتاب قد يسقط عنه اللقب إذا ثبت أنه وقع فيه حقًا.

لأن تقاليد العلم عندنا تقول إن العالم ينبغى أن يكون جامعًا لصفات أهل العلم من ذكاء وحفظ وصدق وأمانة مع نزاهة النفس وصيانتها والبعد عن الدنايات والزهد فى أموال السلاطين. وكان الواحد منهم يقف لصاحبه موقف الرقيب ، والويل لمن يقع فى خطأ فى علم أو فى خلق ، وأمامك نقد السخاوى للسيوطى ونقد السيوطى للسخاوى ونقد ابن حجر لجمال الدين بن تغرى بردى.

ومن أغرب ما وقع لى من أخبار العلماء ودقتهم فى العلم أن ابـن رشيد السبتى الرحالة ، وكان عالما مغربيا يطوف العـالم ليلقـى العلمـاء ويسـمع منهم ، لقى فى مصر الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد وكان إماما فى العلم معاصرا لعز الديـن بـن عبـد السلام ، وكـان ابـن دقيـق العيـد عالـا متواضعا منصرفا إلى العلم ذا حياء وقناعة فى حين كان عز الدين بـن عبـد السلام صاحب دعوى عريضة وفم كبير ومداخلة للسلاطين ، شأنه فى ذلك شأن أهل العلم من غير المصريين الذين كانوا يأتون مصر وينعمـون بخيرهـا ويجدون الأمان والعز فى أعطافها ، ولا يكون لهم هم بعد ذلك إلا التطاول على علماء مصر ومحاولة التعالم عليهم ، ولدينـا من هـؤلاء مثـالان: ابـن حجر العسقلانى من أهل المشرق وعبد الرحمن بن خلدون من أهل المغرب، وكلاهما لم يعرف العز والأمن والمكانة العليا إلا فى مصر ، ومع ذلـك فما أكثر ما وقع ابن حجر فى علماء مصر ، وما أكثر ما وقع ابن خلـدون فـى علماء مصر ، ومسكينة مصر هذه ما أكثر ما تحملت وما تتحمل.

نقول إن ابن رشيد لقى ابن دقيق العيد فى المدرسة الصالحية فى القاهرة وألقى عليه سؤالا وروى خبرا قال فيه.. إن ابن شاهين قال: صليت خلف المازرى ، فتركه ابن دقيق العيد حتى فرغ من كلامه ثم قال له: هذا حسن إلا أن التاريخ يأبى ما ذكرت فإن ابن شاهين لم يلق المازرى فقال ابن رشيد إنما أردت الميانشى فقال ابن دقيق العيد الآن صح ما ذكرتـه ، فتصـور أن الرجل أخطأ خطأ واحدًا فى إسناد خبر فلاحظ الشيخ هذا الخطـأ وانتظـر حتى صححه الطالب!.

فتأمل والله أى أخطاء تهد الجبال يقع فيها أساتذة اليوم ولا أحد يبالى. والسبب؟. هو لقب الدكتوراه قاتله الله!.

ذلك أن الدكتوراه عندنا بدأت بداية حسنة عند أمثال منصور فهمى وطه حسين وزكى مبارك ومحمود عزمى ومن إليهم ، وكـانت الدكتـوراه فـى

أوروبا فى ذلك العصر شيئًا هائلاً ، وكان الرجل فى فرنسا لا يحصل على الدكتوراه إلا إذا شاب شعره وقد يعلم فى السوربون عشرين سنة مدرسًا يحصل بعدها على الدكتوراه وهو فى حدود الخمسين ، وهنا فقط قد – وقد لا – يعين أستاذًا فى السوربون.

ولقد شهدت لأول دراستى فى السوربون مناقشة المستشرق المعروف لنا جميعا كلود كاهان فى رسالته عن شمال الشام أيام الحروب الصليبية ، وجلس ليناقشه خمسة من أسود الاستشراق والتاريخ وأخذوا يساجلونه ويختبرونه ويلومونه ست ساعات ولم يغفر واحد منهم له خطأ واحد فى النحو وظل يقرعه حتى تصبب عرقه ، وأخيرًا منحوه اللقب بعد أن هلك وهلكنا معه!.

وواقعة أخرى من هذا الطراز عندنا شهدتها وشهدها معى أنيس منصور، وكان أيامها يشق طريقه الطويل بادئًا فى جريدة الأهرام فيما أذكر ، والواقعة كانت مناقشة الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى رسالتها عن رسالة الغفران ، ولم تكن مناقشة إنما معركة وقفت فيها تلك المناضلة الباسلة تؤيد رسالتها أمام طه حسين وأحمد أمين والعبادى ومن فى طبقتهم ، ولم تكن مناقشة إنما كانت يوم الحشر لأن أهل العلم فى مصر كلها اجتمعوا لشهود هذه المعركة كأنها نضال بين أسد وأسير فى ملعب روما، ولقد رأيت بنت الشاطئ بعد أن سمعت قرار اللجنة تجلس على مقعدها وتلتقط أنفاسها كأنها البطل أندروفيكوس بعد أن قتل الأسد!.

تلك كانت الدكتوراه فى تلك الأيام ، فماذا أصاب الدكتوراه فى هذه الأيام وأقصد أيامنا هذه؟

لقد أصبحت درجة مالية لا مرتبة علمية.

وإذا أنت حضرت المناقشات عجبت! فإن أصحاب الذمة من الأساتذة المناقشين الذين يقرأون الرسالة ويستعدون لمناقشتها حقًا يظلون يكشفون عن عيوب الرسالة ومواضع الخطأ فيها حتى نقول انتهى الولد يا ولدا!.

ثم تجتمع اللجنة للتداول ، ثم تعود لتعلن منح الطالب درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى ، ولا يمكن إلا أن تكون مرتبة شرف أولى.

وتظل واجما مكانك لأنك لا تفهم ، فإما أن الذى سمعته من كلام الشيوخ ونقدهم حق ، إذن فهذا الطالب لا يستحق الثانوية العامة.

وإما أنها كلها مسرحية مرتبة محبوكة يتأزم فيها الموقف حتى تظن أن البطل قد ضاع ثم فجأة تنحل العقدة وتصفو السماء ويتزوج البطل البطلة وفى هذه الحالة تكون تلاوة قرار اللجنة صورة مبتكرة لأغنيتنا التقليدية اتمخطرى يا حلوة يا زينه.

وأرجو يا سيدى القارئ ألا تحسبنى هازلاً فهذا هو الحق وليس هذا مقام هزل ، إنه يبلغ من استهانة الطالب باللجنة ومناقشاتها وحكمها بالتالى ، أنه فى يوم المناقشة يعزم أهله ومحبيه ويشترى الملبس والشربات لأنه لا يشك فى مرتبة الشرف الأولى ، ولا يكاد الأستاذ المشرف يفرغ من القراءة حتى تتردد الزغاريد ويدور الملبس والشربات ولولا الملامة لأتى الطالب بالراقصات ليرقصن أمامه ، فى الكوشة مع ربة الصون والعفاف الآنسة دكتوراه أو الآنسة ماجى وهو اسم الدلع للماجستير.

وما الذى يدور فى غرفة المداولة؟

هنا أنا لا أذيع سرًا لأن أى فراش فى الكليات يعرف ما أقول حرفًا بحرف ، والفراش فى يوم أى مناقشة هو نجم الحفل ، هو الذى يقوم بإعداد لوازم الزفاف.

الذى يدور هو أن الأستاذ المشرف - لأنه فى أحيان كثيرة جدًا لا يكون قد قرأ الرسالة التى أشرف عليها - يريد أن يغطى على هذه الحقيقة الرهيبة ، فيضفى النقاء على طالبه ، ويدافع عنه كأنه هو - لا الطالب - موضع الامتحان فهو يطالب بالدرجة لنفسه لا للطالب! وكيف يجوز أن

يحصل سيادته على أقل من ماجى بدرجة ممتاز ، أو دوكى – الدكتوراه أقصد – بمرتبة الشرف الأولى!.

وإذا أنت اقترحت أقل من ذلك ومضيت تناقش قالوا لك:

– حرام يا دكتور: إنه متزوج وعنده ثلاثة أولاد.. ده حرام وربنا لا يرضى عن قطع العيش..

وتتلفت حولك وتقول:

– يا ناس.. إن الطالب بخير ، وإذا لم يتصل عيشه فى الجامعة فهو متصل فى التعليم العام ، وهل العمل فى التعليم العام قطع عيش أو وصل عيش؟

– معلهش يا دكتور.. خليها تفوت بقى.. ما هم كلهم كده..

هيه جت على ده!

وهذا المشهد تكرر مرات ومرات حتى وصلنا إلى مستوى أسيف وحزين..

ذلك أن الأساتذة ينسون أنه إذا كان الليسانس أو البكالوريوس أو الدبلوم حقًا للطالب لأنه رزق ومعاش ، فإن الدراسات العليا حق للجامعة لأنها المعمل الذى تعد فيه الجامعات هيئات التدريس وإطارات البحث والدراسات والتعليم الجامعى القادمة.

ومعنى ذلك أنهم لو أتونى بألف طالب فى الليسانس فليس لى حق الاعتراض ، فهؤلاء جميعا شبان وشابات لهم الحق بحكم الدستور فى الدراسة الجامعية والحصول على الإجازة العلمية إذا نجحوا فى الامتحان لكى يكسبوا بها العيش الحلال.

والأمر مختلف جدًا بالنسبة لما هو فوق ذلك.

لأن الدراسات العليا ليست حقًا مطلقًا لأى مواطن بل هى حق للجامعات وحدها..

فنحن لا نأذن لطالب بأن يقيد نفسه فى قسم الدراسات العليا لكى يدخل هيئة التدريس من الباب الخلفى ، ولا نحن نقبله ونعطيه اللقب

العلمى لكى يتباهى به كأنه وردة فى عروة سترته ، فما لهذا خلقت الدراسات العليا ، إنما هى فقط مؤسسة علمية جامعية لكى تعد للجامعات ما هى بحاجة إليه من علماء.

هنا فى قاعات الدراسات العليا يلتقى الجيل السابق بالمؤهلين للبحث العلمى من أبناء الجيل اللاحق ليتكونوا على أيديهم ويتسلموا الراية ليسيروا بها فى طريق العلم.

لا دخل هنا للقمة العيش ولا للعياقة..

ولا قسوة على الإطلاق فى أن تقول لطالب: معذرة يا بنى ، ليس عندى وقت ، فلدى خمسة طلاب يدرسون ، وعندما أفرغ من واحد منهم آخذك بعده.

لأننا كأساتذة لنا الحق فى الإشراف على الرسائل - ينبغى ألا ننسى قط أننا نخدم هنا الجامعة أولاً وعاشرًا - وأن وظائف الجامعة لا ينبغى أن يشغلها إلا الذين يستحقون ذلك فعلاً محافظة على الجامعة فى ذاتها ومراعاة لمستوى العلم فى البلاد.

ولقد قرأت فى طلب تقدم به أستاذ للعمل فى قسم التاريخ فى جامعة عربية ، وكنت رئيس هذا القسم ، فإذا بصاحبنا يقول إنه أشرف إلى الآن على ٧٥ رسالة للماجستير والدكتوراه فاستبعدت الطلب فى الحال ، لأن هذا الأستاذ لا يخلو أن يكون أحد رجلين: إما إنه صادق فيما يقول أى أنه أشرف فعلا على هذا العدد الهائل من الرسائل ، وفى هذه الحالة لا يكون وقته قد اتسع للاطلاع على كتاب واحد أو تأليف كتاب واحد ، وفقد الحق فى الأستاذية من زمن طويل نتيجة لعدم الاطلاع على كتب جديدة ، وإما أن يكون كاذبا ، وهو فى هذه الحالة لا يحق له أن ينتسب إلى الجامعة ولا فى سلك الفراشين والخدمة السايرة..

□□□

ومن بالغ ما يؤسف له أن ما قال هذا الرجل كان صحيحًا.

ومن أساتذة الجامعات بل مساعدى الأساتذة من يشرف فى وقت واحد على عشرين أو ثلاثين بحثًا.

وقد تبينت هيئة علمية أن أستاذا يعمل فيها جعل الإشراف على الرسائل «بيزينس» بل «جريت بيزينس» وتفوق على جهابذة الدنيا كلهم وأشرف فى سنتين على ٦٥ طالبًا ، ولم يجدوا بدًا فى هذه الحالة من أن يطلبوا إليه الخروج وإقفال الباب من الخارج..

وهذا الكلام أقوله دفاعًا عن الجامعات فى بلادى. وبل دفاعًا عن العلم فيها ، فإن المستوى العلمى هو سور دفاعنا الأول والأخير.

وإذا كانت بلادنا ذات تقاليد علمية من أيام امحتب فلا يصح قط أن نتنازل عن ذلك التقليد فى عصر مركبات الفضاء..

وليس فى الدنيا نصف علم ولا ربع علم. إما أن يكون العلم كاملا أو هو ضرر على الدنيا والناس.

وهل يجوز فى عقل أو شرع يا ناس أن يكون هناك دكتور فى الرقص أو دكتور فى الديكور أو فى فن الإعلان أو فى إخراج الخزعبلات التى يسمونها مسلسلات؟.. وإذا كنا عاجزين عن تسويق علب الفول المدمس حتى غلبتنا الصين وتايوان فى هذا المجال ، فعل يعقل أن يكون لدينا العشرات من دكاترة إحصائيات الإعلانات وحسابات الإعلانات أو نظريات فن التسويق؟..

أليس الأفضل من ذلك أن نعطى طالب الدكتوراه صندوق علب فول ليبيعه وينفعنا وينفع نفسه بدل أن نعطيه لقب دكتور لكى يرفع بعد ذلك قضية فى مجلس الدولة مطالبًا بتعيينه فى هيئة التدريس؟..

□□□

وهناك من الشطار من يقولون: أما أنا فدرجتى العلمية من أوروبا ، وللكثيرين جدًا من هؤلاء نقول: قديمة!

ذلك أن أساتذة الجامعات فى الغرب لا يهمهم أن يعطوا أى طالب من غير بلدهم أى لقب علمى يريده ، مادام سيأخذه ويغور عن وجوههم.

ومن أسف أن ذلك يصدر اليوم حتى من أعرق الجامعات فى الغرب ، وماذا يهم الأستاذ فى جامعة مثل ييل مثلاً أو ستانفورد.. أتاه طالب بكلمتين عن عبد الله النديم أو الآنسة مى أو عن الشاعر حلموس صاحب ديوان الأنس المأنوس فى تهانى عيد الجلوس؟ وإذا كان الأستاذ نفسه لم يسمع فى حياته عن عبد الله النديم فماذا يضره إذا عرف عنه شيئًا عن طريق هذا الطالب فى مقابل إعطائه لقب دكتور.

وإذا قلنا إن جامعات الغرب تدقق بعض التدقيق ، فإن «بعضا» هذه تتلاشى تماما عند جامعات الكتلة الشرقية.

فجامعات هذه البلاد لا تتردد فى منح لقب دكتور لأى شاب يلتحق بجامعاتها لأن العلم يأتى عندهم فى المرتبة الثانية لأن المرتبة الأولى هى للمذهب الشيوعى. وهم لا يكونون علماء بل دعاة ، وهذا هو ما يأملونه على الأقل. وهذا لا يمنع من القول بأن الكثيرين من شبابنا الذكى درس هناك وتعلم ونفع وانتفع ، ولكنى أحدثك عن وجهة نظرهم هناك.

وأنا فى كلامى كله لا أقصد التعميم قط ، فليس كل من سيحصلون فى أيامنا على مرتبة الشرف الأولى لا يستحقون تلك المرتبة ، ففيهم الكثيرون ممن هم جديرون بذلك ولا شك وهذا هو المحزن.

أجل، فإنه حرام أن نضيع قلة ممتازة فى زحمة كثرة لا قيمة لها..

والشاب الجيد الذى يستحق يضيع عندنا فى الرجلين..

والأستاذ الذى يأذن لطالب فى طبع رسالة لم يقرأها لا يدرى أى جناية يجنيها على هذا البلد ، إنه يحسب أنه يقوم بعمل من أعمال الإحسان – ربما لنفسه – وفى أثناء ذلك يلحق بنا أشد الضرر.

ومعيار تقدمنا لا يكون بعدد الذين يحصلون على لقب ماجستير ودكتوراه بل بعدد الذين يعلمون حقًا وينفعوننا حقًا.

وهل أدل على روح الاستهتار بالألقاب العلمية من أن الشاب إذا ذهب إلى أوروبا أو أمريكا ليحصل على الدكتوراه يأخذ معه حرمه المصون ويحصل لها - على الماشى - على دكتوراه هى الأخرى؟.. وأى كلام هناك يعطون عليه دكتوراه.

وفى يوم من الأيام سيحصل الطالب على اللقب لأولاده بنين وبنات.

وألف رحمة تنزل عليك يا قاعة لجنة التأليف فى حارة الهدارة..

(٤)
أجمل ما فى مصر*

اخترع المصريون الزراعة والعمارة وفن الحكم وربما الرهبانية أيضًا. خلال ثلاثة آلاف سنة ، كانت الدنيا تقول إن أصلها هى منابع النيل ، وإذن فهذا الوادى كان مهد الفنون والعلوم والقوانين ، من كل نواحى العالم أقبل إلى هذا الوادى الحكماء والقساوسة وأهل التطلع والسحرة وفلاسفة الإغريق والعلماء والزرّاع لكى يتعلموا من أهل هذا البلد فنون الحياة والرى وأصولهما. وإلى هذا الوادى أيضًا وفد المعماريون ليتعلموا المعمار وفنون البناء ، وأتى الحكماء والفلاسفة ليقتبسوا نور العقل وأساليب الفكر السليم ، كل حضارات الدنيا نبعت من هذا الأصل. من هذه التربة المباركة الضاربة إلى السواد التى أودعها النيل فى صبر على رمال الصحراء عبر قرون طويلة. من هذه التربة صنع المصرى كل أصول الحضارة وأعطانا إياها فى سخاء دون أن يسأل ثمنا.

(سيمون لاكوتور: مصر)

أجمل شىء فى مصر هو المتحف المصرى دون شك ديوان مجد خالد ناطق بالجلال.

إذا كان المجد شيئًا يلمس باليد أو يرى بالعين ، فهو هنا فى هذا المتحف أمامك تراه بعينيك وتلمسه بيديك. لا هو خيال ولا وهم ، إنما هو واقع مشهود يشهد به غير المصريين قبل المصريين. عندما كشف ماريت معبد أدفو ورأى بعض ما فيه قال:

يا إلهى ، هذا المعبد يساوى اللوفر كله. وكان اتيين دريوتون آخر مدير فرنسى للمتحف الفرنسى يتمشى فى قاعات المتحف ويقول: هذه ليست حضارة ، إنها الحضارة وعندما تفرج على المتحف بول هريو الكاتب الفرنسى الكبير ورئيس مجلس شيوخ فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية

---

* نشرت هذه المقالة فى ٧ يونية ١٩٨١م .

قال: كنت أحسب أن للجمال حدودًا ، والآن عرفت أنه بلا حدود ، كنت أنوى أن أكتب كتابا عن هذا المتحف ، ولا أحسبنى الآن كاتبه ، فهذا شىء يتخطى حدود الكلمات ، هذا ليس متحفًا إنما هو مدرسة فن بل هو الفن كله. هنا نحت وتصوير وعمارة وحياة كاملة. هنا شعب فنان أصيل.

وأجمل ما فى هذا المتحف هو أنه كله من صنع أيدينا. فلم يكن قبل المصريين القدماء ناس آخرون أخذوا عنهم ، كل ما تراه هنا ، وهو كثير جدًا – من صنع أيديهم من ثمرات أفكارهم. الإنسانية فى ذلك العصر كانت ترسم رسوم أطفال على جدران الكهوف بينما نحن كنا نصنع غررًا يعجز عن مثلها أبناء اليوم. لقد وقف رودان المثال الفرنسى الأعظم أمام تمثال الكاتب المصرى فى متحف اللوفر قال: المثالون فى التاريخ أربعة: صانع هذا التمثال وفدياس وميكلا نجلو وأنا.

كل هذا صنعته عبقريتنا ، عقلنا وإحساسنا وأيدينا ولا شىء غير ذلك. قبل أن نصنع هذه الحضارة لم يكن هنا غير الرمال والصخور ومستنقعات ، حتى النيل كان تيارًا غير محدد المجرى وكان إذا فاض خرّب كل شىء ، فروضناه وأستأنسناه وجعلناه نهرا ، فهو من صنع أيدينا ، ومصر ليست هدية النيل بل النيل هدية المصريين ومصر صنعة المصريين ، وهنا فى ذلك البلد انتقل الإنسان من الضلال فى الأحراش والمستنقعات والبيد إلى حياة الاستقرار والنظام ، هنا انتقل الإنسان من لا شىء إلى شىء ، من حيوان فى جملة الحيوان إلى إنسان ذى عقل مفكر مدبر يعرف الخير والحب والسلام ، ولا يختفى وراء شجرة وفى يده حجر ليهشم رأس أى إنسان يمر به. بل يقف له فى وسط الطريق مادًا له يده ، وهذا ليس كلامى بل كلام العالم المؤرخ الأمريكى جيمس هنرى برستد واحد من عشاق مصر الذين قضوا حياتهم بين الأقصر والفيوم وهذا المتحف ، قاله فى كتابه فجر الضمير..

□□□

ها نحن أولاء فى بهو المتحف ذلك البناء الجليل الذى لا يلتفت إلى جماله أحد منا ، كلنا نمر به ولا نكاد نراه ، ألوف المصريين يقفون فى ميدان التحرير ويرون الفندق ولا يرون المتحف بينما الملايين من غير المصريين يخرجون من ديارهم فى أوربا وأمريكا وعيونهم مثبتة فى هذا المتحف وقلوبهم معلقة به.

ملك واحد من الملوك الراقدين فى هذا المتحف أقام الدنيا وأقعدها ، عندما قرر أن ينهض من سباته ويطوف الدنيا داعيا لمصر ، إنه الملك توت عنخ آمون الذى تسميه الدنيا كلها اليوم الملك توت ، إنه سفير مصر الأول، فى باريس رأيت الناس فى السادسة صباحا صفوفًا ينتظرون دورهم ليدخلوا لتحية الملك توت. شعرت بالخجل من نفسى لأننى مررت بدار هذا الملك - المتحف المصرى - مئات المرات دون أن أفكر فى إلقاء تحية إليه ، شعرت أننى أقل مصرية من هؤلاء الفرنسيين ، لا يكفى أن تولد فى مصر لتكون مصريًا ، إن مصر شىء عظيم والانتساب إليها شرف لا يستحقه الكثيرون ، ربما لم يكن الذنب ذنبهم بل ذنب الذين يدرسون لهم تاريخ مصر القديم ، هؤلاء السادة يقتلون مصر القديمة ويكفّنونها فى كتب مدرسية ويوارونها التراب فى امتحان الثانوية العامة كتبهم مومياوات والوزارة تصنع التوابيت للمومياوات.

تلك الكتب الرخيصة فى كل شىء المنفّرة فى كلامها وفى صورها ، التى لا نتبين أعلاها من أسفلها ، إنها هزيلة فى ورقها الذى هو أرخص ورق فى الدنيا ، إنها ليست كتبًا والذى فيها ليس تاريخًا ، إنها نعوش والذى فيها هياكل عظمية ، من منا يحب الهيكل العظمى؟ لهذا لا يحب أولادنا تاريخ مصر ولا يزورون المتحف المصرى ، لا يزورون أجمل شىء فى بلادهم ، يعيشون ويموتون دون أن يروا أجمل شىء فى بلادهم ونحن المسئولون ، إننا نعلمهم القبح وفلسفة القبح ولا نفكر قط فى أن نعلمهم

الجمال وفلسفة الجمال. رجل واحد فى مصر بتحدث عن فلسفة الجمال: أنيس منصور.

أعود إلى قاعة المدخل فى المتحف ، إنها شىء بديع يفيض بالعلم والفن والجمال ، إلى يسارى أجنحة الدولة القديمة تماثيل باهرة واقفة فى جلال الأبد بعضها من الجرانيت وبعضها من الخشب وبعضها من البازلت ولكنك تحس أنها كلها من لحم ودم ، لو أنك ألقيت إليها التحية لردت عليك ولكنها ربما لم تفهم عنك تحيتك لأنها نادرا ما تسمع العربية ، تسعون فى المائة من زوار المتحف من الأجانب ، إنهم يتكلمون الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والأسبانية ، إذا سمعت صوتا عربيا وجدته يتأفف ويشكو ، إنه يسأل عما إذا كان هنا مكان لشراء الشطائر لأنه يحسب نفسه فى لونابارك ، الآخرون يشعرون أنهم فى معبد حضارة، إنهم يتأملون فى صمت والأدلة فى أيديهم ، إنهم صناع حضارة يزورون صناع حضارة لو أن تمثال امحوتب المعلم الأول قبل أرسطو تكلم لما نطق بالعربية. أغلب الظن أنه يجيد الإنجليزية أو الفرنسية لأنه يعيش يومه كله مع إنجليز أو فرنسيين ، لقد زرت متحف برلين أكثر من مرة وقفت ساعات أتأمل تمثال نفرتيتى ، واحدة من أجمل نساء العالمين ، هذه الأميرة أصبحت ألمانية قاعتها هناك آية من آيات الجمال كلها أضواء وجمال وجلال ، لو كانت هنا لكانت فى ركن صغير فى هذا المتحف ، من حسن حظها وحظنا أنها هناك ، إنها هناك سفيرة لنا ، سفيرة حضارة وعلم ونور.. لندعها هناك فهى شاهد خالد على علمنا وفننا فى عاصمة من عواصم العلم والفن والدنيا: برلين مثلها فى ذلك مثل المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد فى باريس ، إنها هناك علم على مصر فى أجمل مكان فى الدنيا ، ميدان فسيح مساحته ستة أفدنة لو كان هذا الميدان فى مصر لقسمناه قطعا وبعناه لمن يريد أن يبنى بيتا يؤجره شققا مفروشة ، وأمام مسلتنا الجميلة هناك شارع الشانزليزيه ، حدائق الأليزيه أجمل شوارع

على هذه الأرض ، فى نهايته وأمام مسلتنا الجميلة ميدان الأتوال ونصب الجندى الفرنسى المجهول ، من هو المجنون الذى يفكر فى إعادة هذه المسلة إلى مصر لكى تنصب فى ميدان حزين كله فوضى وممرات علوية وسفلية مثل تمثال رمسيس الثانى الذى تقرأ على وجهه آثار الألم لأننا أتينا به من مكانه الهادئ العامر بالنخيل فى البدرشين ووضعناه هنا فى وسط ميدان كله ضجيج وغبار..

التماثيل وأعمال الفن هنا لا حصر لها فى كل متر قطعة أو أكثر تتمناها الدنيا كلها ، لقد كان المصرى القديم إنسانًا فريدًا يعرف قدر نفسه ، ولهذا فقد سجل كل شىء فى حياته فى تمثال أو لوحة أو نص مكتوب. هنا نجد مجموعات نحتية تمثل جيشًا صغيرًا ، ستون جنديًا يسيرون فى نظام تام كأنهم قد تدربوا فى مدرسة بوتسدام أو السانسير ، إنهم رمز على قوة مصر العسكرية هذه القوة كانت دائمًا قوة سلام ، خلال ٣٥٠٠ سنة من تاريخ مصر القديم لم تعتد مصر على أحد ، أقرت النظام فى مصر ووادى النيل كله دون حرب.. وصلنا إلى بلاد بونت عند منابع النيل كى نأتى بالأخشاب ، حملنا إلى هناك ديانتنا ولغتنا وحضارتنا ، ملكتنا العظيمة حتشبسوت تقص قصة الرحلة التجارية الحضارية على جدران معبد الدير البحرى هذه الملكة حتشبسوت امرأة عظيمة ، إنها ملكة سلام ورسول حضارة ، على جدران معبدها - الدير البحرى - تحكى قصة حياتها من مولدها رضيعة ، عندما تصل إلى سن الشباب تصور نفسها رجلاً ذا لحية مصنوعة لتقول إننى امرأة أقوم بعمل الرجال ، إنها الأخت الكبرى لتحتمس الثالث أعظم الفاتحين فى تاريخ مصر القديم، لقد حجبته عن الملك لكى تمهد له وتعطيه بلدًا فى قمة حضارته وازدهاره. ولم يكن شاكرًا لها ، وحاول محو آثارها من كثير من المواضع ، لكنها بقيت ووصلت إلينا قصتها كاملة ، هكذا المرأة عندنا مظلومة مظلومة ولو كانت الملكة حتشبسوت أو حاتاسو.

بمناسبة حتشبسوت نستلفت النظر إلى حقيقة مصرية خالصة تراها فى هذا المتحف العظيم: الأسرة مئات التماثيل تصوّر الرجل إلى جانب زوجته وعلى وجهيهما علائم الهناء الزوجى ، لكنا نعرف تمثال الأمير رع حوتب وزوجته الجميلة نوفريت ، إنهما رمز الأسرة المصرية السعيدة. التمثال آية فى الجمال والتناسق الفنى ، فإنك لا تشبع من تأمل نوفريت وعليها ذلك الثوب الكتانى الرقيق الذى ينطق بجمال تكوينها مع الحشمة البالغة ، إنها جميلة جدًا وشعرها المنسدل على جبينها مجموع بشريط يزيد جبهتها الناصعة جمالاً ، مازالت نساؤنا المصريات مولعات بهذه التسريحة وذلك الشريط ، على وجهها ابتسامة هادئة وديعة وإلى جوارها زوجها وأميرها يبتسم نفس الابتسامة. إنها سعادة زوجية موزعة على وجهين.

هنا عشرات من تماثيل السعادة الزوجية هذه ، ليس فى الدنيا فنان حرص على تصوير الأسرة وسعادتها كما فعل المثّال المصرى ، لم يخطر ببال مثّال إغريقى أن يصور السعادة الزوجية ، لقد حرص الإغريقى فى تماثيله على إظهار جمال جسد المرأة فحسب ، إنه يعرف الجنس ويجسّده، ولكنه لا يعرف قداسة الحياة الزوجية. رودان أعظم المثّالين فى العصر الحديث عندما أراد تصوير الحب جعله فى صورة رجل يقّبل امرأة فى وضع جارح للحشمة ، رغم عبقرية تمثاله نقول إنه غير أخلاقى. المثال المصرى القديم هو الفنان الأخلاقى الوحيد فى التاريخ ، إنه دائمًا يصور الأسرة السعيدة: المرأة المطمئنة لزوجها والزوج السعيد بامرأته. فى أحيان كثيرة يضيف الأولاد ، إنهم دائما بين ساقى الأم والأب ، رمز جميل يدّل على الحماية والحب والعطف ، حقًا لقد كان المصرى القديم إنسانًا كريمًا محترمًا يحب زوجته ويفخر بها ويقدمها للدنيا. إذا تأملت تمثال الأمير رع حوتب وزوجته الأميرة نفرت (بضم النون) أحسست أنهما يتحاوران ، هناك كلام كثير تقوله هذه المرأة الفاتنة لزوجها الوقور القوى ، إنهما ليسا تمثالين إنهما أسرة تعيش ، إنهما مصر ، مصر الأسرة ، وتاريخ مصر كله

قائم على قوة الأسرة وسعادتها وتماسكها ، ما مّر بنا من كوارث الزمان كان كفيلا بأن يبيدنا ، ولكننا بقينا بفضل الأسرة وتماسك الأسرة.

الرومان أنفسهم الذين يقال إنهم أقوى دولة ظهرت فى التاريخ القديم – بادوا ومضوا مع أمس الدابر ، لأنهم لم يحترموا الأسرة ، كانوا شعبًا قويًا عسكريًا ولكنه متهالك أخلاقيًا فبادوا ، أما مصر فقد كانت دائمًا قوة أخلاقية ، ولهذا بقيت ، الأخلاق المصرية تتمثل فى قوة الأسرة المصرية ، والرئيس السادات على حق عندما يؤكد لنا اليوم أن أعظم مظاهر حضارتنا هى قوة أسرتنا. إنه رئيس موهوب يجدد شباب مصر على نفس الأسس العريقة التى قام عليها مجد مصر: أسس الأسرة وروح الأسرة وأخلاقيات الأسرة ، روح القرية وأخلاقيات القرية ، مصر فى أجمل حالاتها أسرة سعيدة أو قرية متآخية ، ورئيس مصر هو «كبير العيلة» أذهب إلى المتحف المصرى ترى ذلك بعينيك ، ستشعر أنك تنتسب إلى شعب عريق يقوم مجده على الأخلاق ، من الأخلاق المصرية القديمة نشأت الديانة المصرية القديمة وهى ديانة عائلية ، إنها تتمثل فى أسرة أوزوريس وإيزيس وابنهما حورس ، قصة إيزيس مأساة تهزّ الوجدان ، هذه المرأة عندما قتلوا زوجها وألقوا كل قطعة من جسده فى ناحية مضت تجمع أشلاء جسده حتى اكتمل ثم نفخ الإله رع فيه الروح. حورس الابن ساعد أمه فى ذلك ، هذا درس للأبناء وواجبهم نحو الآباء.

حورس ترأه فى كل ركن من أركان ذلك المتحف ، إنه يتصور فى صورة صقر أو نسر ، إن الصقر طائر نبيل ترأه ، دائمًا محلقًا فى السماء ، إنه عزيز النفس رفيع المقام ، ولكنه إذا هبط إلى الأرض ضم جناحيه ووقف هادئا رصينا لأنه هنا يعود إلى أسرته ، وللأسرة يخفض جناح الذل من الرحمة ، ذلك هو الابن المصرى البار كما ينبغى أن يكون: رفيعًا عزيزًا محلقًا فى السماء طموحًا ، ولكنه وديع هادئ مع أسرته مع أخوته ، هل نفهم نحن هذا المعنى العظيم وهل نعلّمه لأولادنا الذين نقول إننا اليوم

عاجزون عن السيطرة عليهم ، إننا نقول إنهم متمردون لكيلاً نعترف بأننا آباء عاجزون.

□□□

وكل هذه التماثيل والتصاوير والقطع الفنية وجدناها فى القبور إننى أسأل نفسى دائمًا: إذا كانت هذه هى القبور فما بالك بما كانت عليه القصور..؟

لابد أنها كانت أجمل وأحفل من هذه ألف مرة..

وإليك هذه الحكاية تصور ما أقول.. إنها فى كتاب «حسن المحاضرة» لجلال الدين السيوطى قال: حكى أن المأمون لما دخل مصر قال: قّبح الله فرعون إذ قال ﴿أليس ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون﴾ (سورة الزخرف آية ٥١) ، فلو رأى العراق فقال سعيد بن عفير: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى قال: ﴿ ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ (سورة الأعراف آية ١٣٧). فما ظنك بشىء دمره الله هذه بقيته. فقال: ما قصرتَ يا سعيد. قال سعيد: ثم قلت: يا أمير المؤمنين ، لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير ، حتى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه إذا شاءوا ، وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله إلى آخره ما بين أسوان إلى رشيد لا تنقطع ، ولقد كانت المرأة تخرج حاسرة ولا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر..

وهذا كله حق ، والذى نراه فى هذا المتحف على روعته إنما هو جزء لا يذكر مما كان فى أرض مصر أيام أجدادنا الأمجاد هؤلاء..

ولكن بقيت لنا قطعة من هذا الماضى المصرى تستطيع أن تراها بعينيك. لقد قادنى إليها ودلّنى عليها أثرى عظيم هو الدكتور أحمد فخرى طيب الله ثراه ، لقد كان أثريًا محبًا لمصر مخلصًا لمجدها ، مثله فى ذلك مثل

سليم حسن أعظم أثرى مصرى عرفناه ، لماذا دائمًا نجد أن الأجيال من أهل العلم والفن والفكر التى عاشت وازدهرت فى الثلاثينات والأربعينات أعظم من كل ما جاء بعدها؟.. سليم حسن كان من جيل العمالقة ، جيل طه حسين والعقاد ومحمود مختار ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ، لماذا بعد العمالقة فى العلوم والفنون ظهر الأقزام ، والأثريون اليوم لا يؤلف الواحد منهم كتابا قيمة. بينما سليم حسن ألف نحو عشرين مجلدا كل مجلد منها مجد لمصر.

فى آثار سليم حسن وأحمد فخرى نمضى معا إلى أبو صير فى مديرية الجيزة ، بعد قليل ترى على البعد هرم سقارة المدرج. عند أبو صير تجد قلب مدينة منف القديمة. ومنف كانت مدينة واسعة تبدأ عند أهرام الجيزة وتمتد حتى سقارة. هذا الهرم المدرج واحد من سلسلة من الأهرامات تمتد من أهرامات خوفو وخفرع ومنكرينوس الذى نسميه منقرع ، وتستمر فى هرم دهشور ثم هرم ميدوم فى مديرية المنيا ، قرب سقارة ترى قطعة من سور عال قديم ، كان هذا السور رفيع الذرى متين البناء ، وكان يدور حول مدينة سقارة وهى جزء من منف أو منفيس ، أنظر إلى الباقى من هذا السور تعرف الباقى ، لقد تصوروه فى صورته الكاملة ورسموه ، إنه سور عظيم يضم قصورا وحدائق ، وبساتين لأن منف المدينة العظيمة كانت مقر السلطان ومدينة الأسواق ، وفيها أيضا كان هرم سقارة وهو مقبرة الملك ، المصرى القديم لم يكن يرى فاصلا بين الحياة فى هذه الدنيا والأخرى ، نحن نقول اليوم إن آخر أيام الدنيا هو أول أيام الآخرة ، والموت ليس إلا انتقالا من حياة دنيا إلى حياة خالدة لا تزول ، هكذا كان المصرى القديم يقول:

لقد بنى هذا الجزء من منف المهندس العظيم امحوتب الذى جعله اليونان إله العلم والطب والهندسة ، وقد صممها على هيئة لا تقل عن أعظم ما يبنى المعماريون اليوم ، لأن مصر القديمة كانت بلاد علم وفن

ودين وأخلاق وتقاليد ، وقد يقول قائل إن الله سبحانه وتعالى لعن فرعون في القرآن ، وهذا حق. لعن فرعون الذى فسد وطغى ولكنه سبحانه وتعالى لم يلعن الفراعنة ، لأن الفراعنة كان فيهم ملوك عظماء ، ملوك صنعوا الدولة والأمة والحضارة.

□□□

كل هذا ومازلنا فى جناح مصر القديمة فى ذلك المتحف الهائل ، إن هذا الجناح وحده ديوان مجد خالد فما بالك ببقية الأجنحة ، إنك تستطيع أن تخصص يومًا كل شهر لهذا المجد العظيم الذى هو المتحف المصرى ، أجمل ما فى مصر.

وأقف هنا لأقول: إنهم يفكرون فى إنشاء متحف جديد وهذا التفكير جريمة ، لأن هذا المتحف نفسه قطعة خالدة من العمارة ونحن نسىء إليه لأننا جعلنا أمامه موقف سيارات ، وكان أولى أو يكون كل ما حوله حدائق، كم أتمنى لو كانت لدينا حساسية الفرنسيين نحو متحف اللوفر الذى يتألق وسط حدائق وزهور؟

أم هل نحن سنقتل هذا المتحف كما قتلنا دار الكتب القديمة وهى تحفة معمارية ، لكى ننقل الكتب إلى شاطئ النيل حيث لا يستطيع المجىء للقراءة إلا نفر قليل ، فى حين أن دار الكتب فى باب الخلق كانت جامعة علوم ، بالذات لأنها فى قلب البلد ، فى باب الخلق..

لماذا لا يفكرون فى نقل المكتبة الأهلية فى باريس من حى البورصة إلى شاطئ السين؟

لماذا لا يخطر ببالهم أن ينقلوا المتحف البريطانى من موضعه؟